بسم الله الرحمن الرحيم

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فهذه المحاضرات التى يجدها القارىء فى هذه المجموعة كتبت والقيت فى مناسبات مختلفة ، تختلف فى الزمان والمكان ، والعنوان والألوان ، وتجتمع فى غاية واحدة وهى : ايقاظ الشعور الدينى فى المسلمين ، واعادة الثقة الى نفوسهم بمركزهم ومبدئهم وغايتهم فى الحياة ورسالتهم للعالم البشرى ، وتهيئة النفوس لحمل هذه الرسالة وتبوء مركز القيادة والامامة للعالم الحائر الثائر ، وتجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين والركاب النائمين .

وقد خوطبت فى هذه المحاضرات والمقالات الأمة الاسلامية بصفة عامة ، اذ هى الأمة الأخيرة التى أخرجت للناس ، وصاحبة الرسالة الأخيرة التى وجهت الى الناس ، وعنيت بها الأمة العربية بصفة خاصة ، فمن أفقها طلعت شمس الاسلام فى العصر الأول وأسفر الصبح الصادق ، وقد أسكنها الله فى خير مركز فى العالم لتوجيه الدعوة الاسلامية ، وازجاء الرسالة الاسلامية الى الأمم المتحضرة والعالم المتمدن ، وتبوء مكان القيادة العالمية .

ولما كانت هذه المحاضرات كتبت فى ظروف مختلفة كنت أشك فى وجود وحدة تربط بينها ، لذلك لما اقترح على نشر هذه الرسائل فى مجموعة ترددت بعض الزمن فى اجابة هذا الطلب ، ونظرت فيها من جديد فاذا بوحدة تجمع بينها وغاية تشترك فيها وهى : الدعوة

http://kotob.has.it

الى الاسلام من جديد ، فقبلت هذا الاقتراح وجمعتها فى مجموعة أسميتها « الى الاسلام من جديد » وأدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها القراء ، وأن يحرك بها سواكن القلوب ، ويحيى بها موات النفوس ، انه على كل شىء قدير .

ابو الحسن على الحسنى الندوى

نزيل القاهرة

١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م

* * *

http://kotob.has.it

الى ممثلى البلاد الاسلامية

عرجت على المؤتمر الثقافى (١) العام ، الذى قد اشترك فيه ممثلو البلاد وبعثات الأمم ووفود النوادى ، فرأيت معرضا للجنسيات والوطنيات والحضارات ، ورأيتكم أيها السادة المسلمون شامة بين الناس ، لا لأنكم تمتازون عن زملائكم فى الشارة واللباس **بل لأنكم تمثلون تلك الأمة العظيمة التى كانت ولا تزال شامة بين الأمم .**

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرنا سائرا سيره الطبيعى لا ينكر من أمره شيء ، فكانت القرى والمدن عامرة بالسكان ، وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت الحرف البشرية ووجوه المعاش فى ازدهار وانتشار ، كانت الزراعة وكانت التجارة وكانت الصناعة ، فبينما كانت سكة الفلاح فى شغل ونشاط كانت القوافل التجارية غادية رائحة بين الشرق والغرب ، وكانت الأسواق مشحونة بالمتاجر والبضائع ، وكان الصناعون مكبين على أعمالهم . وكانت الحكومات والامارات والدول غنية بأموالها ورجالها ، لكل وظيفة رجل كفؤ بل رجال أكفاء ، وكان على وجه الأرض كل نوع من البشر ، وكل لون من الحياة ، وكل مظهر من مظاهر المدنية ، لا يرى فى الحياة الانسانية المادية عوز أو فراغ . ولم تكن فى المدينة وظيفة شاغرة يترشح لها مترشح جديد ، وكانت كأس الحياة مترعة لا تطلب المزيد .

---

(١) المؤتمر الثقافى الآسيوى الذى عقد فى دهلى فى أبريل ١٩٤٧ م ، واشترك فيه ممثلو : مصر ، ولبنان ، وأفغانستان ، وايران ، وتركيا واندونيسيا من الاقطار الاسلامية .

http://kotob.has.it

فى هذه الحال ظهرت أمة فى جزيرة العرب ووجد نوع جديد من البشر ، وكأنى بالأمم المعاصرة وهى تتسائل : أى داع الى ظهور امة جديدة والأمم على وجه الأرض كثيرة منتشرة ، وما شغل هذه الأمة الحديثة ، وما مهمتها فى العالم ؟

وكأنى بها تقول : اذا كانت هذه الأمة انما بعثت للزراعة وعمارة الأرض فقد كان فى فلاحى الطائف ، واكارى مدينة يثرب ، وزراع وادى الفرات والنيل وربوع الكنج وجمنا ، غنى عن امة زراعية جديدة ، فقد اصبحت أراضى هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبنا وعسلا ، واذا كان المسلمون انما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فقط ، فلماذا لم يبعثوا فى العراق ، وفى مصر ، والهند وهى بلاد مخصبة زراعية ، ولماذا كان مبعثهم فى واد غير ذى زرع ؟

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت للتجارة ، فقد كان فى يهود يثرب وفى انباط الشام وفى أقباط مصر وتجار السند كفاية ، فقد أحكموا فن التجارة وانتشروا فى العالم ، واذا كانوا قد بعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقا فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية ، وبقرب من أسواق التجارة الكبرى ؟

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت للصناعة وأعمال اليد ، فقد كان فى قيون البلاد المتمدنة ، وأصحاب الصنائع والحرف — وانهم لكثير — غنى وكفاية !

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت لتنضم الى الحكومات الرومية والايرانية ، وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان فى أهل الشام وفارس غنى وكفاية فى الادارة ، وانهم يزاحمون الأجانب بالمناكب ويدفعونهم بالراح .

واذا كانت هذه الأمة بعثت لعيش هنيىء ، ومطعم شهى ، ومشرب مرىء ، وملبس وضىء ، ومسكن بهى ، لا لشىء آخر وانما

http://kotob.has.it

مناها وهمها أن تلقى لبوســـا ومطعما ، لم تكن بدعا من الأمم ، وكانت منافسة لنا فى ميدان الحياة ، فحق لنا أن نقاتلها ونذودها عن مناهلنا ، وقد ضاقت بنا ، فكيف تسع أمة جديدة ؟

واذا كانت هذه الأمة انما تحاول ملكا ، أو تريد أن تؤسس دولة ، فيجب أن تصرح بذلك ، وتتخذ له طريق الملوك والفاتحين ، ولا تتظاهر بالدين .

وان الطريق الى كل ذلك ــ من زراعة ، وتجارة ، وصناعة ، ووظيفة ، وحياة بذخ وترف ، وملك وشرف ــ غير الطريق التى سلكتها هذه الأمة الجديدة ، فقد سفهت أحلامنا ، وعابت آلهتنا ، ونعت على عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا ، ودعت الى دين جديد ، وسارت فى سبيل ذلك فى شوك وقتاد ، وجاهدت فى غير جهاد .

لقد كان الطريق الى الرفاهية أو الحكومة مسلوكة معبدة ، قد سلكتها الأمم من قبل ، ومشى عليها الملوك ، وأصحاب الطموح فى عصرهم ، فمن حال بينها وبين هذه الطريق ؟ وما الذى عدل بها عن جادة الحياة ، وهى معلومة واضحة ؟!

هذا ما أظنه تناجى به ضمير الانسان العاقل فى فجر الاسلام ولا ألومه ولا أستغرب هذا السؤال ، فان هذا السؤال طبعى ينبغى أن يهجس فى قلب الانسان ، وينطق به اللسان ، عند كل ناشئة فلماذا لا ينشأ هذا السؤال عند ظهور أمة بأسرها ؟

ما هو الجواب ؟ اذا كان الجواب فى الاثبات ، واذا كان مبعث هذه الأمة فى الحقيقة بشىء مما ذكرناه ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة فى العالم ورسالة خاصة الى الأمم ، كانت هذه الامة حقـا من فضول الأمم ، ومن المتطفلين على مائدة العالم .

http://kotob.has.it

ولكن الله لم يبعثها لهذا أو لذاك ، والأمة والأشخاص لا يبعثون لشيء من هذا ، وانما هى من طبائع البشر ، لا تحتاج الى نبوة نبى ، ولا بعثة أمة ، وجهاد طويل وزلزال عالمى لم يسبق فى التاريخ زلزال فى المعتقد والأخلاق والميول والنزعات ، وفى نظام الفكر ومنهاج الحياة .

لقد كان مبعثها لغرض سام جدا ، لمهمة غريبة طال عهد الانسانية بها ، وتشاغلت أمم الأنبياء عنها حتى نسيتها ، وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الأمة : « كنتم خير أمة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله» (١) ! فنبه على أن هذه الأمة ليست نابتة نبتت فى الأرض كأشجار برية أو حشائش شيطانية ، بل انها أمة اخرجت ولأمر ما اخرجت ! وانها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم ، بل انها اخرجت للناس ، وذلك ما تمتاز به الأمة فى التاريخ ، فما من أمة الا وهى وليد اغراضها ، ورهين بطنها وشهواتها ، تعيش لاجلها وتموت فى سبيلها ، اما الأمة الاسلامية فهى أمة اخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد فى سبيل الله .

ظهرت نواة هذه الأمة فى مكة ـ قلب جزيرة العرب ـ فقام العقلاء من قريش ـ وهم الآخذون بزمام الحياة فى البلاد ـ ونثروا كنانة فكرهم ، وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التى عرفوها وألفوها ، ووزنوها فى ميزان الانسانية الذى طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح ، فوجدوهم خفاف الوزن ، طائشى الكفة ، وذهبوا الى امام الدعوة الاسلامية ، وأول المسلمين فى العالم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال قائلهم :

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

http://kotob.has.it

« انك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها » .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يأبا الوليد أسمع » .

قال : « يا ابن أخى ، أن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنالك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت انما تريد شرفا ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك . وان كنت انما تريد ملكا ملكناك علينا (١) » .

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك فى هدوء وتأن ، ثم رفضه فى غير شك وتأخير ، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، بل كان على هذه الأمة التى يمثلها ويقودها . ولم يكن رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرضت قريش ، رفضا عن نفسه الكريمة فقط ، بل كان رفضا عن أمته الى آخر الأبد .

اقتنعت قريش بهذه المحاورة ، ويئست من مساومة هذه الأمة ، ولم تعد تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة وعلى هذه الأمة بواسطة ما عرضته من قبل ، وقطعت منها أملها .

وكان بعد ذلك صراع مستمر ، ونزاع طويل ، ولم يكن نزاعا فى أغراض المادة وشهوات البطن ، والاستئثار بموارد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

http://kotob.has.it

الرزق ، والتغلب على الأسواق ، بل كان نزاعا بين الاسلام والجاهلية بمعنى الكلمتين ، نزاعا بين حياة العبودية والانقياد لله تعالى ورسوله ، وبين الحياة الحرة المطلقة التى لا تعرف قيدا أو لا تخشى معادا ولا حسابا .

وكان من نتيجة ذلك معركة بدر الحاسمة ، وقد قاد النبى صلى الله عليه وسلم الى ساحة القتال جيشا لا يزيد عدد المقاتلين فيه على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، والجيش المنافس فيه ألف محارب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم يقينا ان لو وكل المسلمون الى أنفسهم وقوتهم المادية ، فالنتيجة معلومة واضحة ، نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوى كثير العدد .

فزع الرسول الى الله تعالى فى انابة نبى ، والحاح عبد ، ودعاء مضطر ، وشفع لهذه العصابة فى كلمات صريحة واضحة ، نيرة خالدة ، هى خير تعريف لهذه الأمة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذى خلقت له .

لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو هلكت هذه العصابة ، وكانت فريسة للعدو ، أقفرت المدينة ، وأوحشت أسواقها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة ، أو تعطل شغل من أشغال الحياة ، أو وقفت ادارة الحكومات . لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من ذلك ، لأن شيئا منها لم يتوقف على المسلمين ولم يقم بهم بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال فى غنى عنهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر شيئا بعث المسلمون لاجله ، وقام بالمسلمين وحدهم ، فقال : « اللهم ان تهلك هذه العصابة لن تعبد » .

أجاب الله دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم ، وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطا

http://kotob.has.it

بقيام حياة العبودية بهم ، وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ورواجها وازدهارها فى العالم ، انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ولم يبق على الله لهم حق وذمة ، وأصبحوا كسائر الأمم خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون ، بل كانوا أشد جريمة ، وأقل قيمة من الأمم الأخرى ، اذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وكان كما أخبر الله تعالى : **« قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما (١) »** .

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبروا بهذا العهد ، وتذكروا أنهم انما نصروا على عدوهم ـ وقد كان يأتى عليهم ويستأصلهم فى ساحة بدر ـ وتركوا على ظهر الأرض لأن عبادة الله منوطة بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثوا فى العالم ، وحملوها الى الملوك والسوقة والأمم ، وفى سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا ، ، ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله الى الأمم ، وحاملو راية الاسلام فى العالم .

أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر الى رستم ـ قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ـ فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابى ، واظهروا اليواقيت واللآلى الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعى بثياب صفيقة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الفرقان .

http://kotob.has.it

الوسائد ، واقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه ، فقالوا له :

« ضع سلاحك » فقال : « انى لم آتكم وانما جئتكم حين دعوتمونى ، فان تركتمونى هكذا ، والا رجعت » ، فقال رستم : « ائذنوا له » فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها ، فقالوا له : « ما جاء بكم ؟ » فقال : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبدا ، حتى نفضى الى موعود الله » قالوا : « وما موعود الله » ؟ قال : « الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى (١) » .

أباح الله للمسلمين الطيبات ، وفسح لهم فى طرق الكسب ووجوه المعاش ، ولم يضيق عليهم فى ذلك ، فقال : **« قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٢) .**

وقال : **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (٣) .**

ولكن الله لم يبعثهم لذلك أمة ، ولم يرضه لهم غاية ومهمة ، بل خلقهم للسعى للآخرة ، وخلق أسباب الحياة لهم ، « ان الدنيا خلقت لكم ، وانكم خلقتم للآخرة » وجعل الحياة وأسبابها خاضعة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٠ من سورة الجمعة .

http://kotob.has.it

لهمتهم التى بعثوا لأجلها ، فاذا زاحمتهم فى سبيل مهمتهم أو غلبتهم عليها ، رفضوها واذا تلكأ المسلمون فى ذلك عاتبهم الله عتابا شديدا وقال :

« قل ان كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، واخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » (١)

أراد الأنصار رضى الله عنهم أن يتفرغوا لاصلاح أموالهم ، لأيام ، اكتفاء بأنصار الاسلام ، فعاتبهم الله على ذلك وأنزل : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » (٢) .

قال سيدنا أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه : « انما نزلت فينا معشر الأنصار ، انا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فى ما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فاصلحناها ، فانزل هذه الآية » (٣) .

ولكن مع الأسف الشديد ، قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالأمم الجاهلية وسعوا وراءها ، وعقدوا حياتهم بها ، فاذا أشرفتم على مدنهم وبلادهم من مرقب عال لم تميزوا بينهم وبين أفراد أمة جاهلية ، سعى وراء المادة فى غير اقتصاد ، واكتساب من غير احتساب ، سهر فى غير طاعة ، وعمل فى غير نية ، وتجارة فى لهو عن ذكر الله ، وحرفةفى جهل عن دين الله ، ووظيفة فى الاخلاص لغير الله ، وحكومة فى مشاقة الله ، شغل فى ضلالة ، وقعود فى بطالة ، وحياة فى غفلة وجهالة .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة .
(٢) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .
(٣) رواه أبو داود فى سننه .

http://kotob.has.it

هل اذا اطلعتم ـ يا سادتى ـ على بلاد اسلامية ، ورأيتم هذه الأمة فى غداوتها وروحاتها الى الأسواق والادارات ، ومصالح الحكومة ، عرفتم أنها أمة خلقت لشىء آخر ، وبعثت لغرض آخر اسمى من هذه الأغراض التى يسعى لها الكافر والمؤمن .

ان هذا الأسلوب من الحياة لحجة ظاهرة لأهل الجاهلية على المسلمين ، فلو نطقوا لقالوا : « ما ذنبنا ، أيها المسلمون ! اذ عرضنا على نبيكم المال ، والسيادة ، والملك ، فأبى ورفض كل ذلك ؟! الا نراكم تسعون اليوم وراء الذى رفضه نبيكم بالأمس ، كأنما خلقتم لأجله ؟ فأى الفريقين أشد ذنبا ، أمن عرض على محمد صلى الله عليه وسلم المال والسيادة والملك ، تفاديا من الخلاف والنزاع ، فأبى ورفض ، أو من تهافت على ما رفضه سيده تهافت الظمآن على الماء ، والفراش على النور ؟.

واذا كنتم اليوم لا يهمكم الا المال ، أو الحياة ، أو الشرف ، أو حكم على قطعة أرض ، فلماذا تظاهرتم بالأمس بالدين ، واقمتم الدنيا واقعدتموها لأجله ، وكدرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا فى غنى عن هذه الحروب الطاحنة التى أيتمت البنين ، وأيامت النساء ، وأجلت الناس عن الأوطان !.

أعيدوا الينا اذا تلك الدماء التى أريقت فى ساحة بدر وأحد ، وخيبر وحنين ، واليرموك والقادسية ، وأعيدوا الينا تلك النفوس التى قتلت باسم الدين ، وأعيدوا الينا تلك الأيام التى كنا نعيش فيها فى وئام وهدوء ، لا نعرف فيها الا الأكل والشرب وقضاء مآرب النفس !

وماذا يكون جوابنا لو تعرض أحد من أخلافهم الأحياء وقال : « ما غناؤكم أيها المسلمون ؟! لقد ساهمتمونا فى أسباب الحياة ، وخلقتم لنا فوق ذلك مشكلات كثيرة فى الحياة السياسية

http://kotob.has.it

والاجتماعية ، ولا تراكم تسدون عوزا ، أو تصلحون خللا ، وتلمون شعثا ، أو تقيمون زيفا فى الحياة » .

عفوا أيها القراء ، وسماحا أيها الكرام ، فقد طال العتاب ، وقديما قال الشاعر العربى :

وفى العتاب حياة بين أقوام

من المعلوم أن حياة الأمم بالرسالة والدعوة ، وان الأمة التى لا تحمل رسالة ولا تستصحب دعوة ، حياتها مصطنعة غير طبعية وانها كورقة انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن ان تحيا بسقى أو رى : « فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (١) .

اننا ـ أيها القراء ـ أمة الحاضر وامة المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنصر ، لأننا اصحاب دعوة ورسالة نبوية ، وهى الرسالة الأبدية التى قضى الله بخلودها وظهورها ، فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان ، بشرط أن نقوم بدعوتنا ، ولنستقل برسالتنا ونعود امة دعوة نبوية كما بدانا ، دعوة فى ما بيننا معشر المسلمين ودعوة فى غيرنا من الأجانب فى الدين .

لقد تخلفنا عن الأمم المعاصرة فى العلوم الطبيعية ، والأسباب الحربية ، وفى الأخذ بأسباب الرقى المادى بعدة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الأرنب والسلحفاة ، الا ان الأرنب كان ساهرا مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمة رغم بطئها وثقلها فلو حاربنا هذه الأمم اليوم لاستغرق ذلك قرونا ، ثم كانت المقارنة بحساب دقيق ، فاذا افاق العدو وسبقنا بشعرة فى القوة المادية

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد .

http://kotob.has.it

والعدد الحربية رجحت كفته ، لأن المادة عمياء وهى من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيـه بين المحق والمبطل والشريف والوضيع .

ولكن الدعوة والرسالة ـ وهى الروح التى تقهر المادة وتسخر الأسباب وتستنزل النصر ـ تأتى بخوارق ومعجزات ، وطالما قهرت القاهر وفتحت الغالب ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ، ودانت الملوك الجبابرة بقوة الدعوة والرسالة للمماليك والصعاليك ، وقد جربت ذلك هذه الأمة مرتين بوضوح فى التاريخ :

مرة :لما خرج العرب من جزيرتهم الى البلاد الرومية والفارسية فى ثياب صفيقة مرقعة ، وفى نعال وضيعة مخصوفة ، يحملون سيوفا بالية الأجفان ، رثة المحامل ، على خيل قصيرة ، متقطعة الغرز ، وسرعان ما قهرت دعوتهم ورسـالتهم وحياتهم الأمم الرومية والفارسية ، التىكانت كدمى كسيتحللا فاخرة ، وأعوادا أسندت الى الجدار ، لحرمانها من رسالة ، وقعودها عن دعوة ، وكان الانتصار فى الأخير للرسالة على النظام ، وللروح على المادة ، وللمعنى على الظاهر .

ومرة ثانية : لما قهر التتر ـ ذلك الجراد المنتشر ـ العالم الاسلامى من أقصاه الى اقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين ، فلم تقم لهم قائمة ، ولم يقف فى وجههم واقف ، وكاد المسـلمون يصبحون أثرا بعد عين ، واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الأمثال السائرة : « اذا قيل لك ان التتر انهزموا ، فلا تصدق» هنالك فعلت الدعوة الاسلامية فعلها ، ونفذت فيهم . فاذا القاهر يصبح مقهورا ، واذا الفاتح مفتوح لدين المفتوحين ، واذا التتر يتلفظون بكلمة الاسلام ، ويدينون برسالة محمد عليه الصـلاة والسلام ، ويصبحون أمة اسلامية .

http://kotob.has.it

وان الرسالة الاسلامية لتاتى بالمعجزات اليوم ، وتقهر الأمم طوعا ـ لا كرها ـ بسلطانها الروحى ونفوذها العجيب .

ان آباءكم ـ أيها السادة المسلمون ـ قد انتشروا فى عواصم الجاهلية الأولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » وخلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأحبار والرهبان والملوك ، وخلصوا الأمة الفارسية من عبادةالنار وعبودية البيت الكيانى ، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض ، والأمة الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها الى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلا من ضيق الدنيا الي سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون فى عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون : « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادى الى سعة عالم القناعة والايثار والزهد ، ونعيم الروح وطمانينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، الى عدل الاسلام » .

هذه هى الدعوة التى تهيب بكم يا رجال العالم الاسلامى ، وهذه الانسانية البائسة تستصرخكم وتستغيثكم على أعدائها . وليس العالم اليوم باقل ظمأ وأقل فاقة الى الدعوة الاسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وانه لا يختلف عما كان عليه فى القرن السادس المسيحى ، فهو غنى اليوم فى كل ناحية من نواحى الحياة وفى جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالأمم والحكومات ، وطفح بالاعلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطغيان الأهواء والنزعات ، وثورة الأغراض والشهوات ، فهو فى ذلك لا يقبل علاوة ، ولا يسمح بزيادة ، فاذا لم يكن المسلمون الا امة من الأمم ليست لهم دعوة الى الله ، ولا رسالة للانسانية

http://kotob.has.it

المحتضرة ، ولم يكن لهم هم الا أنفسهم وبطونهم ، لم يكن هنالك ما يبرر تاريخهم الماضى الذى افتتح بالدعوة الدينية والجهاد فى سبيلها ، ولا يبرر وجودهم فى هذا العصر ، فانما نصروا واستبقوا بشريطة القيام بالعبادة والدعوة اليها .

والدعوة الى الله هى الناحية الوحيدة التى لا تزال فارغة فى خارطة العالم ، لا تشغلها أمة ولا دعوة ، فاذا عمرها المسلمون أحسنوا الى الانسانية والى أنفسهم ، وأمسكوا هذا العالم المتمدن الذى قد كاد يهوى فى الهاوية .

http://kotob.has.it

معقل الانسانية

كان وجود الأمة الاسلامية فى كل ناحية من نواحى العالم رمزا لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية ، وكان كل فرد من أفراد هذه الأمة يعلن للعالم ـ وليدا أو ميتا ـ أن وراء القوى المادية قوة سماوية ووراء الحياة الفانية حياة خالدة ، فاذا ولد وليد صرخ فى أذنه بهذه الحقيقة ، واذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة .

اذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت ، وغاص الناس فى بحر الحياة الى أذقانهم ، واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية ، اذا بصوت يدوى « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » فينكسر طلسم العالم المادى ، وتتجلى الحقيقة الروحية ، ويجرى الناس وراء هذا الصوت ، وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم . واذا ضرب الليل رواقه ، ومد النوم أطنابه على هذا العالم الحى الصاخب ، فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب ، اذا بمعين الحياة ينصب فى وادى الموت ، فينبلج الصبح الصادق فى الليل الغاسق ، وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درسا فى الحياة والنشاط والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة . واذا اعتز أحد بقوته وسلطانه ، وزها بكثرة ملئه وأعوانه ، وقال بلسان المقال أو بلسان الحال : « أنا ربكم الأعلى » أو « ما لكم من اله غيرى » قام رجل متواضع على منصة عالية فى كل بقعة من بقاع مملكته ، أو نفوذه ، ونادى «الله أكبر الله أكبر» فينادى بحكم الله فى مملكته ويرغم أنف الاله الكاذب فى سلطانه .

اذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الأرض ، أو أجليت منها ، لم يصب نظام المعيشة بشلل أو خلل ، وظل

http://kotob.has.it

الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وظلت رحى الحياة تدور دورها الطبيعي ، ولكن روح ذلك المجتمع الانساني تفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح ، كذلك كان في اسبانيا ، وكذلك كان في كل بقعة انسحب منها المسلمون أو أجلاهم عنها أهلها ، وهل أسبانيا الحاضرة الا مدنية بلا روح ، وحياة بلا مبدأ ، وأمة بغير رسالة للعالم !.

ان المؤمن وحده هو صاحب عاطفة في هيكل العقل والمادة الذي لا يعبد فيه الا النفس والبطن ، وهل الحياة الا بالعاطفة؟ وهل الدنيا اذا ماتت العاطفة ، وغلب العقل ، وحكمت المادة ، الا سوق تجارة أو ميدان حرب ؟ فاذا ثار المؤمن للحق كسر طلاسم العقل ، وفك سلاسل الكون ، وحطم أصنام المادة ، وأملى على العالم ارادة الله ، فاذا هو مطيع خاضع واذا هو متواضع خاشع ، قلب تيار الحياة وغير وجه التاريخ ، وأرغم الكون على أن يسير سيرته .

حالت دجلة في سبيل المسلمين دون المدائن ، وكانت السنة كثيرة المدود ، ودجلة تقذف بالزبد ، فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « الا اني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم » فقالوا جميعا : « عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل » فندب الناس الى العبور ، وأذن لهم في الاقتحام ، وقال : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، و[illegible]ن دينه ، وليهزمن عدوه ، ولا قوة الا بالله العلي العظيم » وتلاحق الناس في دجلة ، وهم يتحدثون كما يتحدثون في البر ، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطىء شيء (١) .

---

(١) الكامل لابن الاثير (جـ ٣ ص ١٩٨) .

http://kotob.has.it